تأسيسُ المدرسةِ

شعر السكان بحاجةِ القريةِ إلى مدرسةٍ يتعلَّم فيها أبناؤها العلمَ والمعارفَ والأخلاقَ وعلوم الدين ، بدلَ إرسالهم إلىٰ مدارس المدينة المجاورةِ؛ حيث يتجشمّون مخاطر الطريق والغُربةِ ، فتعاونوا في جمع المال وتقديم العمل ، فأسسوا مدرسةً علىٰ مرتفعٍ في غربِ القريةِ علىٰ أرضٍ تبرَّع بها الأهالي ، وكانت نواةً لمدرسةٍ نَمَتْ وكَبُرَتْ مع الأيام وصار تجمُّعُ التلاميذ في القريةِ ، وتسابقَ الأهلُ في إرسالِ أبنائهم إليها وكلٌّ يَحُثُّ ابنَهُ كي يكون من المتفوقين والأوائل في صفِّهِ والمدرسةِ ، كما توافَدَ إليها أبناءُ القرىٰ والمزارع الصغيرةِ المجاورةِ التي لا تملك مدارس فيها ، كتجمعات السكان في وادي السمك والمجيحية والعديسة والحوتية وشكوم ونقيب العربية .

وكان لهذه المدرسة إشعاعاتٌ علميةٌ في هذا الوسط المأهول بالسكان ، والمهملِ منذ فترةِ الاستعمار الفرنسي وقبله ، وذلك منذ أوائل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ، وقد أوفدت الحكومات الوطنية بعد الاستقلال الأساتذة والمعلمين من مدن

درعا ودمشق والقنيطرة وفيق ، إلىٰ هذه المدرسة وغيرها من المدارس ، وقد أسهم المثقفون الفلسطينيون من أصحاب الخبرات التعليمية في هذا التعليم الابتدائي والإعدادي وغيره ، عندما هُجِرّوا إلىٰ سورية بعد نكبتهم عام ١٩٤٨م.

كان العلم الوطني للجمهورية العربية السورية يرفرف فوق سارية هذه المدرسة ، حيث يقف له مئات التلاميذ حتىٰ الأهالي باحترام رافعين الأيدي بالتحية ، وهم يرددون النشيد العربي السوري المثير للمشاعر:

حُماةَ الدّيارِ عليكم سلام أَبتْ أَن تُذَلَّ النفوسُ الكِرام

حتىٰ آخر النشيد الذي يهزُّ النفوسَ حَماسةً وأنفةً وكبرياء ، بما يشتملُ علىٰ كلماتٍ كبيرةٍ في معانيها ومثيرةٍ للعواطفِ الوطنية والقومية وحبِّ الوطن ، لشعبٍ حصلَ علىٰ استقلاله بالتضحيات الجِسام وَفَرَشَ أرض المعارك بالدم فنبتَ فيها زهرُ شقائِقِ النعمان والأقحوانِ ، فإليك يا شعب سورية محبةً من كل طفلٍ ورجلٍ وامرأةٍ وهم يقفون باستعدادٍ للدفاعِ عن حِياضِكَ ضد الطامعين والمستعمرين والمحتلين لأرضٍ عربيَّةٍ في فلسطين والجولان وجنوب لبنان والعراق.

أصبحت المدرسة مَحَجَّةً للصغار والكبار الذين أقبلوا علىٰ معلميهم يرغبون التَّزَوُّدَ بالمعارفِ والتحصيل العلمي الدراسي. وفتحَ المعلمون للصغارِ والكبارِ أبواب المدرسةِ نهاراً وليلاً

وكانت المطالعةُ الليليةُ علىٰ ضوءِ المصباح البترولي ، وحَصَّلوا شهاداتِ السرتفيكا وهي تؤهلهم آنذاك دخولَ الوظائِفِ الحكوميَّةِ والتطوُّعِ بالجيشِ ونيلِ رُتَبِ العريف والرقيب والمساعد.

وبعدَ دوامٍ من الصباحِ حتىٰ الظهر يشعرُ التلاميذُ بالجوعِ ، فيسرعون نحو البيوت وقد وجدوا أمهاتهم قد شَوَتْ أرغِفَةً ساخنةً وحَمَلنَها علىٰ رؤوسِهِنَّ ، فتناوَلَ كلٌّ منهم رغيفاً ساخناً ويسرعُ نحو معصرَةِ الزيت القريبة فيتناوَلُ منه كَيَّالُ الزيتِ ويَدْهَنُهُ بعصير هذا الزيتون الذي باركه الله تعالىٰ عندما قال في كتابه العزيز: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾

[المؤمنون: ٢٠].

فيأكلون ويتلذذون من غذاء مفيدٍ ، وهو خيرٌ مما نراهُ حالياً من مأكولاتٍ محشوَّةٍ بالدهونِ الضارَّةِ والتوابِلِ المؤذيةِ واللحومِ المغشوشةِ ، وغالباً ما تقوم الأمهات والجدات بحشوِ الأرغفةِ بالفطر البري أو الزعتر الجبلي ، أو نعنع الساقية أو بالكشك والزيت ، إنها الحياةُ الريفيةُ فيها نشأ الشبابُ وإليها يشتاقونَ ويَحُنّون.

فإليكِ أيتُها القريةُ الشماء الغالية التحية والأشواق والدعوات الحارة وأن نَراكِ ونَلْثُمَ ترابكِ قبل أن نموت.

أوفدت وزارةُ المعارف في الحكومة السورية الفتيةِ المعلمين والأساتذة إلىٰ القرىٰ الحدودية ، وكانوا من خيرةِ رجالاتِ

التعليم ، فقاموا بما يمليه عليهم الواجبُ بخدمةِ الأجيالِ ومنها قرية سكوفيا ، بعد أن أهملها الاستعمارُ وقبله الحكم العثمانيُّ المتخلف ، وترك أمرَ العديد من القرىٰ يتحكمُ فيها الإقطاعيون وأزلامُهم ، فقرىٰ البطيحة يملكها الإقطاعي فؤاد اليوسف مع قرىٰ أخرىٰ في منطقة الحولة وغيرها ، وهناك آخرون يحوزون علىٰ مزارع وأراضي واسعة مثل عز الدين بك والزركي والسكري ، وكانوا يتحكمون بسكانها من الفلاحين ومنتجاتهم وبيعهم وشرائهم وصيدهم من أسماك البحيرةِ ، وحتىٰ إنهم يتدخلون في بناء المدارس .

أما قُرىٰ الزَّويَّةِ ومنها سكوفيا فكان أبناؤها وآباؤهم يتنافسون في طلب العلم ، وقد ظهر شبابُ قرية كفر حارب متفوقين في التحصيل الدراسي والحصول علىٰ شهادات جامعية ، وكان من بين الدفعة الأولىٰ للمتخرجين من جامعة دمشق ثلاثة من شبان هذه القرية الجميلة .

وتبعهم الكثير من القرىٰ الأخرىٰ من فيق وسكوفيا والعال وخسفين وغيرها وشمَلَ العلم والتمسك بأهدافه جميع التجمعات والبلدات في الزويّة ، وكان الطلابُ يرحلون إلىٰ المدن البعيدة مثل دمشق ودرعا والقنيطرة وغيرها؛ لمتابعة هذا التحصيل رغم ضيق اليد لدىٰ أهلهم وَمَشَقَّة السفر والإقامة .

* * *